رسائل لم ترسل

الكاتبة لبنى بن صوشة

رسائلُ لم ترسلُ

لبنى بن صوشة

مقدمة الكتاب :

إلى كل من كتب ذات يوم،

ثم تراجع في اللحظة الأخيرة عن الإرسال...

إلى الذين خبّؤوا وجعهم في الأدراج،

ورتبوا حروفهم على الورق لا كي تُقرأ، بل كي تُنقذهم .

هذا الكتاب...

ليس حكاية حب، ولا قصة فراق فقط.

بل هو أرشيف شعور،

متحف صغير للألم الجميل،

وتاريخ امرأة كتبت كثيرًا...

لكنها لم تُرسل شيئًا .

في كل رسالة،

قلب كان يحاول النجاة،

وصوت كان يصرخ خلف سطرٍ هادئ .

"رسائل لم تُرسل"

ليست مجرد رسائل...

بل هي بقايا قلب تعافى على مهل،

وتعلم أن بعض الحكايات لا تُختَتم بضجيج،

بل تُطوى بصمت،

ويُغلق عليها الدرج دون ندم.

كلّنا كتبنا يومًا رسالة ولم نُرسلها...

ربما لأننا خفنا،

ربما لأننا أدركنا متأخرين أن الكلمات لا تُعيد من اختار الرحيل .

هذا الكتاب ليس قصة حبٍ ضائعة،

ولا اعترافًا متأخرًا...

بل هو مرآة لقلبٍ ظلّ يكتب حتى حين كسرَه الصمت .

"رسائل لم تُرسل"

هي كل تلك الكلمات التي لم تجد طريقها إلى أحد،

كل الاعتذارات التي لم نقُلها،

وكل الأجوبة التي لم تصلنا،

كل النظرات التي خبأناها،

والوداع الذي علق في الحنجرة ولم يُقال .

هنا...

ستقرأ وجعًا يشبهك،

وخذلانًا مرّ بك،

وصوتًا يشبه الذي خنقته طويلًا .

لا تقرأ هذه الصفحات كقصة،

اقرأها كأنك تفتح درج قلبك،

وترى ما كنت تظنه مات... ينبض من جديد.

لم تكن رسائلي لتصل أبدًا...

لا لأن الطريق طويل، أو لأن العنوان مفقود،

بل لأنني... لم أملك الجرأة يومًا على إرسالها .

كل ورقة خبّأت فيها صوتي،

كل سطر كتبته وأنا أرتجف،

كل كلمة كنت أود أن تصفعك، أو تعانقك، أو تنقذك...

انتهت مطوية في درجٍ لا يفتحه أحد .

أنا لست كاتبة ماهرة،

لكنني أحببتك بما يكفي لأكتبك ألف مرة...

ثم أمزّق الورق قبل أن يصل إليك.

كنت هنا، بقربك تمامًا...

أعرف كل تفاصيلك الصغيرة، أعرف كيف تمسح عرقك

حين تتوتر،

وكيف تضحك فجأة عندما تتهرب من المواجهة،

وكيف يبرق في عينيك حنينٌ لا أفهمه .

كنت هنا...

أضع روحي في كفّي،

أنتظر كلمة، نظرة، حتى ولو عابرة .

لكنك كنت دائمًا في مكانٍ لا أصل إليه...

حتى وأنا أمامك،

حتى وأنا أكتب هذه الرسالة،

أشعر أن المسافة بيني وبينك لا تُقاس بالكيلومترات،

بل بعدد المرات التي صرخت فيها داخلي:

"انتبه لي ولو مرة "

لكنها بقيت صرخة صامتة،

مثل هذه الرسالة...

محبوسة في درجٍ خشبي،

جنب رسائل أخرى،

كلها كانت يومًا محاولة نجاة

كلّ الطرق إليك كانت مغلقة،

لكن قلبي، ذاك الأحمق، كان يحاول في كل مرة...

يطرق بابك برسالة،

يختبئ في سطر،

يتسلل خلسة بين الحروف،

ثم يعود إليّ مكسورًا دون رد .

هل كنت قاسيًا؟

لا أدري...

ربما كنت فقط مشغولًا عنّي،

أو لم ترَ فيّ ما يستحق الالتفات .

لكنني كنت أراك.

أراك في وجه المارّة،

في أغنية قديمة،

في ظلّ شجرة كنتَ تمُرّ منها،

وفي الفراغ الذي تركته خلفك .

كنت أراك في رسائلي التي لم أكتبها بعد،

وفي كل الرسائل التي مزّقتها لأنني أعلم أنك لن تقرأها .

لو كنتَ هنا الآن،

كنت سأقول لك:

لا بأس، غيابك كان ضروريًا،

علّمني كيف أكتب لنفسي... لا لأحد

لم أكن أطلب كثيرًا...

فقط رسالة وداع.

كلمة تقول لي إنك راحل،

إنك اخترت حياة لا مكان لي فيها،

إن قلبي لم يعد يُناسبك كما كنت أظن.

أكنت أستحق أن أُترك بهذه الطريقة؟

أم أنني كنت مجرد استراحة قلب؟

مجرّد ظلّ لا تلتفت له إلا حين تختفي الشمس؟

أنا لا ألومك كثيرًا...

لكنني ألومني،

ألوم هذه الفتاة التي كانت تكتب لك دون توقيع،

تُحبك دون شروط،

وتنتظرك دون وعد.

هل تعلم؟

الخذلان لا يأتي من غيابك،

بل من صمتي بعدك،

من كل الرسائل التي كتبتها لك...
ثم أخفيتها كأنها خطيئة
مرّت الأيام،
ولم يحدث شيء خارق كما ظننت...
لم يتوقف العالم،
لم تتداعَ السماء،
لم يُفتَضح وجعي .

نجوت، نعم...
لكنني لست على قيد الحياة .

أُمارس أيامي مثل عادة قديمة،
أضحك حين يجب أن أضحك،
وأمشي بين الناس بخفّة لا تشبهني،
لكن شيئًا في داخلي مات حين قرّرتَ أن ترحل بلا وداع .

ما زلت أكتب...

لكنني لم أعد أكتب إليك،

أنا فقط أُفرغ الحبر من قلبي،

لأتمكن من النوم دون أن يختنقني السؤال:

"لماذا لم تكن لي، رغم كل هذا الحب؟ "

لا تقل شيئًا.

فأنا لا أبحث عن إجابة،

أنا فقط... أرتّب وجعي في سطور،

ثم أضعه في درج مغلق... ككل الرسائل التي لم تُرسل .

هل تعلم ما لم أُخبرك به أبدًا؟

أنني كنت أخافك.

نعم... أخافك، كما يخاف الطفل من الغياب الطويل لأمه،

كما يخاف النائم من أن يصحو على واقعٍ لا يُشبه أحلامه .

كنت أخاف أن أقترب أكثر،
فأضيع فيك،
أن أقول لك "أحبك" بصوتٍ مسموع،
فتصمّ أذنيك .

كنت أخاف أن تلمح في عينيّ كل الأشياء التي أخفيتها،
كل المرات التي حاولت فيها أن أتجاهلك... وفشلت .

كنتَ بالنسبة لي
ذاك النوع من الأمان الذي لا يُطمئن،
ذاك النوع من الحب الذي لا يمكن لمسه،
ولا حتى انتظاره .

وأسوأ ما فيك...
أنك كنت حقيقية أكثر من اللازم.
وفي واقعي، لا يبقى الحقيقي طويلًا.

لم أعد أكتبك بحنين.

ولم أعد أراك في التفاصيل الصغيرة كما كنت .

لم يعد صوتك يوقظ شيئًا في داخلي،

ولا عينيك تفسدان عليّ هدوئي كما اعتدتا .

كنت أكتبك بشغف ذات زمن،

أجمع الحروف كما تُجمع الذكريات...

أحميك من النسيان وكأنك شيءٌ مقدّس .

أما الآن...

فأنا أكتبك فقط لأُنهي ما بدأته.

أكتبك كمن يفرغ زجاجة عطر قديم،

احتفظ بها طويلًا... لكنها فقدت رائحتها .

أريد أن أُنهكك كما أنهكتني،

لكنني لا أجيد القسوة.

فقط أجيد الرحيل بصمت... ودفن الحكايات في الورق.

لم تعد تُوجعني كما كنت،

ولم أعد أستيقظ على صوتك الغائب في ذهني .

لم أعد أبكي وأنا أكتبك،

ولا أرتجف وأنا أقرأ حروفي القديمة التي كنت أظنها خالدة .

أنتَ لم تعد ذاك الألم النابض،

أصبحت مجرد تفصيل ناقص في حياةٍ اكتملت بدونه .

هل تحسّ بشيء وأنت تقرأ هذا؟

هل يصلُك هذا البرود في عباراتي؟

هل تسمع في صمتي صوت امرأة... لم تعد تحبك؟

أنا لا أكرهك،

فالكراهية شعور يتعبني أكثر مما تستحق .

أنا فقط لا أعنيك بعد الآن.

وهذه أول مرة أكتبك دون أن ينتفض قلبي.

هذه آخر مرة أكتب.

آخر مرة أُنزفك على الورق...

فحتى الأوراق تعبت،

وحتى الحروف ملت من تكرارك .

لا شيء في داخلي يحتمل الرجوع،

ولا في الذاكرة مساحةٌ تتّسع لخيبةٍ أخرى .

تعلم؟

أنا لم أكتبك حبًا فقط...

بل كتبتك ضعفًا، اشتياقًا،

هروبًا من واقعٍ لم أستطع مواجهته .

كنت وهمًا كبيرًا...
بنيت عليه جدارًا من الأمنيات،
ثم انهار عليّ دون إنذار .

لكنني لن أكرهك.
سأكتفي بتركك هنا،
بين الرسائل التي لم أرسلها،
بين السطور التي لم تعد تعنيني .

اقرأني بصمت – إن وصلتك يوما–
لكن لا تعتذر...
فبعض الأبواب تُغلق كي لا نُؤذى أكثر.
وداعًا حقا هذه المرة ...
مرّت سنوات على آخر مرة كتبت فيها.

تركت كل شيء على حاله: الأوراق، الرسائل، الدرج الخشبي، وحتى الغبار الذي استقر فوق الذكريات .

لم أعد أعود إليهم.
لم أعد أفتح الرسائل.
ولم أعد أكتب .

كنت أظنني أغلقت كل الأبواب خلفي...
إلى أن عاد ذلك الصوت.
صوت ورق يُقلّب... في غرفتي .

دخلت ببطء...
رأيتها تجلس على الأرض، وقد تناثرت الرسائل حولها.
تقرأ، وتبكي...
تلمس الكلمات كأنها تنزف منها، لا مني .

كانت سُمى، أختي الصغرى.

تلك التي كانت تظنني أقوى من الجبال،

الآن تراها تنهار بين يديّ كلمات كتمتها عن الجميع .

رفعت رأسها نحوي، قالت بصوتٍ مختنق:

" –كل هذا كان في قلبك... وأنا لم أعرف؟ "

سكتُّ.

لم أعرف كيف أقول لها إن بعض الأوجاع لا تُروى، بل تُكتب فقط... ثم تُخفى .

جلستُ إلى جانبها،

وسمحت لنفسي أن أقرأ مع صوتها،

أن أستمع لحروفي كأنها ليست لي .

وفهمت لحظتها شيئًا واحدًا:

أننا نكتب لا لنُرسل...

بل لننجو .

جلست سُمى أمامي، تضمّ الرسائل إلى صدرها كأنها كنز
وجدتْه بعد ضياع طويل،
وكان في عينيها خوف... أكثر من الحزن .

قالت بصوتٍ منخفض، يشبه التردد:
" –كنتِ تضحكين معنا كل يوم...
كنتِ تبدين بخير.
كيف كتبتِ كل هذا، ولم نشعر بشيء؟ "

لم أُجبها فورًا.
أحيانًا يكون الجواب أثقل من السؤال نفسه .

همستُ بعد لحظة صمت:

" –كنت أكتب كي لا أموت من الصمت.

كنت أكتبكِم ضحكة... وأكتب وجعي سرًّا ".

سُمى انحنت نحو الأرض، جمعت الأوراق بحذر، ثم قالت:

" –أختي... كان لازم تحكي.

حتى لو مش لنا، تحكي لنفسك بصوت.

مش على ورق ".

ابتسمتُ نصف ابتسامة، ثم قلت:

" –الورق لا يخذل يا سُمى.

ولا يُقاطعك...

ولا يلومك لأنك ما زلتِ تحبين من رحل ".

سُمى رفعت نظرها نحوي، بعينين تغلي فيهما الأسئلة:

" –وينه الآن؟

اللي كتبتيله كل هذا...

وينه؟ يعرف؟ حس؟ رجع؟ "

أخفضتُ رأسي، وكأن كل تلك السنوات انسكبت عليّ فجأة.

قلت بهدوء:

" –ما عاد يهم وينه...

اللي يهم، أنني نجوت منه، ومن نفسي القديمة اللي كانت تتنفسه ".

اقتربت سُمى، أمسكت يدي، همست:

" –إذا كنتي كتبتي كل هاذ الشي عشان تِنسَي...

فأنا اليوم مستعدة نسمعك...

عشان تِرتاحي ".

كانت سُمى قد غادرت الغرفة،

وبقيت وحدي مع الصناديق، مع الدرج المفتوح، مع صوتي

القديم المحبوس بين الورق .

لم أكن أفكر فيك...
ولا في أي رسالة جديدة .

لكن حين رنّ جرس الباب، وتسلّمت ظرفًا قديمًا يبدو كأن الزمن نفسه تعب منه،
لم أكن أعلم أنني على وشك أن أُفتح من جديد .

كان الظرف باهت اللون، دون طابع، دون ختم واضح...
مجرد اسم: ليان .

ليان...
اسمي الذي ما عاد يُكتب على المغلفات .
فتحت الظرف بيدين ترتجفان...
سقطت منه ورقة واحدة فقط.

خطّ يدٍ أعرفه، أعرفه أكثر مما أعرف نفسي .

ليان،

لا أعرف إن كانت هذه الرسالة ستصل،
أو إن كنتِ ستقرئينها بعد كل هذا الوقت،

لكنني كنت أجبن من أن أحبك كما تستحقين .

لم أرحل لأنكِ لستِ كافية...
بل لأنكِ كنتِ أكثر مما أستحق .

كل يومٍ مرّ من دونك، كان ناقصًا...
تمامًا كقلبي من بعدك .

سامحيني...

أو لا تسامحيني .

فقط... اعلمي أنك كنتِ يومًا،

الحرف الوحيد الذي تمنيتُ لو قرأته حتى آخره .

—أ.

أسقطت الرسالة من يدي .

كان الحرف الأول من اسمه فقط...

لكنني لم أحتجه كاملًا.

أنا من كتبتُه حرفًا حرفًا،

كيف لا أميّزه من أول نقطة في التوقيع؟

عاد... لكنه تأخر.

وأنا... لا أعلم إن كنت ما زلت أملك مكانًا داخليًا،
يسمح له بالدخول من جديد.
وصلت رسالتك.
وقرأتها .

قرأتها مرة واحدة فقط،
فهمتُ كل ما فيها، ولم أشعر بشيء .

تأخرتَ يا "أ."
تأخرت كثيرًا .

أنا الآن امرأة أُخرى.
لا تنتظر، لا تشتاق، ولا ترتبك أمام الحروف .

كنتَ حُلمي الجميل،
ثم صرتَ وجعي الأكبر،

ثم صرتَ... لا شيء.

تعلم كم من الليالي قضيتُها وأنا أكتبك؟
كم من الرسائل خبّأتها كي لا أضعف؟
كم مرة دفنتك بين الأسطر، لأن الواقع كان أرحم من أملٍ كاذب؟

وها أنت...
تعود بعد أن انتهى كل شيء،
وتكتب لي لأنك لم تجرؤ على البقاء حين كان يجب أن تبقى.

هذه رسالتي الأخيرة.
أكتبها لا لأنك تستحقها،
بل لأنني أستحق أن أُنهيك بكلمتي... لا بوجعي.

لا أريد منك شيئًا.

لا اعتذارًا، ولا تبريرًا، ولا حتى تذكّرًا .

أريد فقط أن تعرف...

أنك لم تعد تسكنني .

وداعًا،

ولن أوقّع هذه الرسالة.

لأنني – أخيرًا – لم أعد تلك التي كانت تكتبك.

مرت أيام قليلة بعد تلك الرسالة الأخيرة.

كتبتها، ولم أضعها في ظرف،

لم أكتب عنوانًا،

ولا حتى اسمه .

قرأتُها بصوتٍ مسموع للمرة الأولى،

ثم طويتها...

ووضعتها في نفس الدرج،

الذي ظل سنواتٍ مليئًا برسائل لم تُرسل .

لكن هذه المرة،

قبل أن أغلق الدرج، نظرتُ إليه طويلًا...

كما ينظر أحدهم إلى قبر حفره بيده،

دفن فيه عمرًا كان يظنه أبديًّا .

لم أبكِ.

لم أرتجف.

لم أندم .

كل شيءٍ كان هادئًا.

يشبه الوداع الناضج...

ذاك الوداع الذي لا يحتاج ضجيجًا،

لأنه لم يعد هناك شيءٌ يُقال .

في تلك الليلة،

فتحت نافذتي،

وأخذت ورقة بيضاء...

لأول مرة منذ زمن،

لم أكتب فيها له،

بل كتبتُ لي .

" <ليان،

لقد كنتِ شجاعة...

ونجوتِ بنفسك، من نفسك .

هذه ليست نهاية الحكاية...

بل بدايتكِ".

ابتسمتُ،

ولم أعد إلى الدرج بعدها.

كم من الكلمات خنقناها... كي لا تفضحنا،

وكم من الرسائل دفنّاها... كي لا نضعف أمام من لا يستحق .

لسنا ضعفاء لأننا كتبنا،

بل كنّا شجعانًا...

حين اخترنا أن نبوح للورق بدل أن نجرح أنفسنا بواقعٍ لا يسمع .

ليست كل الرسائل خُلقت لتُقرأ،

بعضها خُلقت...

ليكون عزاءً خفيًا،

ووطنًا نعود إليه كلما جار الحنين .

وفي النهاية،

نحن لا نُشفى بنسيان من أحببنا...

بل بالعودة إلى أنفسنا،

والكتابة لها،

والمسامحة الصامتة التي لا يراها أحد... سوانا.

ثم فهمت...

أن النضج لا يعني أن نتجاوز الألم،

بل أن نتوقف عن الركض خلف من لا يلتفت .

وأننا لا نُشفى تمامًا،

لكننا نعيش رغم الندبة،

نبتسم رغم الغصة،

ونكتب...

لا كي نُذكّرهم بنا، بل كي لا ننسى أنفسنا .

ليست كل النهايات حزينة...

بعضها هادئة، ناعمة، خفيفة على القلب،

كأنها تقول:

"نجوتِ... وهذا يكفي ".

رسائل لم ترسل

الكاتبة لبنى بن صوشة